"هوس الثورة"
قراءة كتاب "قصتي مع الشعر" (سيرة ذاتية) للشاعر نزار قباني

محمد السعيدي
دكتوراه في اللغة والتواصل (تخصص النقد الأدبي)
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين لجهة الشرق، وجدة

مقدمة

نزار قباني شاعر كبير، سرى شعره بين العامة والخاصة، وتشعبت مذاهب القول فيه بين القبول والرد، وتباينت المواقف والتأويلات دون أن يختلفوا كثيرا حول متانة شعره وامتلاكه لأدواته الشعرية، مما أكسبه قوة لاحتمال ألوان من التحليل النقدي ومنحه قدرة على ولوج قلوب الكثير دون استئذان..

ومن حقه والحالة هذه أن يكتب سيرته الذاتية، بل انها أفضل ما يقدم لقرائه بعدما قدم لهم شعره. فالناس عادة مولعون بمعرفة تفاصيل حياة المشاهير. إنهم ربما يودون أن يعرفوا عن هؤلاء الذين يذهلوهم ويأسرونهم بإبداعاتهم لأي طينة ينتمون. . هل هم بشر عاديون.. أم إنهم للعادة خارقون. فقراء هم أم أغنياء. . تعساء أم سعداء. . هل كان الحظ بجانبهم، أم كابدوا صروف الدهر وضنك الأيام. . هل كان كلامهم تعبيرا صادقا عن تجاربهم ام هو محض مبالغة وهيمان في كل واد. . انهم بكل بساطة يبحثون عن السر المحير وراء هؤلاء الناس (غواية الشعر. ..

لم يكن غريبا أن يتهم بعض الناس الأنبياء عبر العصور بالكهانة أو الشعر، إذ إن للشاعر من القدرة على أسر الألباب والقلوب، ما يجعل الحدود بين السحر والشعر والوحي تختلط لدى بعضهم.

من هذا المنطلق لم أجد غير، "هوس الثورة " أقدر على التعبير عما تركته قرادة كتاب "قصتي مع الشعر" للشاعر نزار قباني من انطباع أولي في نفسي، فصممت على اختبار هذا الانطباع من خلال قراءة ثانية تتلمس قدر المستطاع مدى صحة هذا الرأي او خطئه.. دون أن يعني ذلك محاكمة لشخص الشاعر أو سيرته. وإنما هي قراءة تروم لونا من التأويل بدى لي أقرب إلى الصواب. والله المستعان.

1- السيرة الذاتية: سد لباب النقد أم فتح لأبواب جديدة:

يصدر نزار سيرته الذاتية هذه بجملة من العبارات التي انتقاها لأدباء معاصرين غربين وعرب، ولذلك بلا شك دلالة واضحة على إصراره على التنفس في أجواء الغرب والتحليق في فلكه.. مع إغفال للتراث بكل ثقله.. وهو ليس بدعا في ذلك، فقد كان أدونيس أكثر وضوحا في ذلك، وأبرز في الدعوة للقطيعة مع الماضي...

ولعل إطلالة سريعة على هذه العبارات التي أوردها نزار تؤيد تأويلنا هذا: "كل أدب جديد هو عدائي"[1] هذه عبارة ل"أوجين يونسكو" توحي بموقف فكري يقرن الجديد بتكسير المألوف. . بل بالعداء لكل ما اعتاد عليه الناس. . ولكي يؤكد نزار نزوعه إلى "الثورة" يستعير مقولة للكاتب والشاعر الفرنسي: "جان كوكتو" تجعل المعاناة أهم بواعث الكتابة الحقيقية. ..

وتماشيا مع مذهبه في الخروج على المألوف، يريد نزار هنا أن "يرسم" وجهه بيده.. وأن يسد الطريق على كل تأويلات النقاد. . يفعل هذا لأنه رأى: "ثلاثة أرباع الشعراء من فيرجيل إلى شكسبير.. من اختراع النقاد"[2] لكن هل تكفي مثل هذه الصفحات التي يحاول فيها "أن يظهر

على المسرح بشكله الطبيعي"، هل تكفي لكف الأقلام عنه؟؟. . إننا طبعا لا نظن ذلك، بل إنها ستنضاف إلى باقي كتاباته لتثري مجال النقد وتفتح شهية النقاد من جديد.

"لن يكون هذا الكتاب تاريخا.. لأن التاريخ علم الحوادث الميتة. "[3] هذا يقول عن كتابه – اما الشاعر فهو "حادث شعري" خارج سلطة الموت. ." اذن فهو يكتب لأنه يخشى الموت إنه يريد أن يخلد، على الأقل في ذاكرة الناس.

وإذا كان قد التزم بألا يعطي دروسا، فالملاحظ أنه أخل بالتزامه فشحن الكتاب بكثير من العبارات "المسكوكة" التي يريدها أن تسري مسرى الحكم. يقول: "أن يكون الانسان شاعرا في الوطن العربي ليس معجزة، بل المعجزة أن لا يكون."[4]

إن المسألة في رأيه – بكل بساطة مسألة وراثة تستعصي على التفسير.. وبمثل هذا المنطق الذي لا يستند إلى تعليل يحاول، ولعله يستطيع أحيانا أن يقنع القارئ بما يراه.

و إذا كان "الشاعر يكتب، ولكنه أسوا من يفسر كيمياء الكتابة"[5]، وكان نزار نفسه يتساءل دون أن يحسم، قائلا: "كيف يمكنني أن أكون موضوعيا حين أكون أنا الموضوع؟"[6] فالواضح أنه يعطي القارئ الضوء الأخضر للتأويل، وإن كان قد وضع الكتاب لسد الباب أمام النقاد وتأويلاتهم التي قد لا تروقه.. فاختار له عنوانا واضحا تجنبا لأي فهم خاطئ.. وأغلب عناوينه الفرعية تعضد ما ذهبنا إليه مما اصطلحنا عليه "هوس الثورة ": (تحطيم الأشياء، مهاجمة، القطار، اغتصاب العالم بالكلمات سقوط الوثنية الشعرية..) كلها كسر وتحطيم وتدمير..

2– نزار الطفل المتمرد الثائر:

"الثورة فعل جديد وكلام جديد في آن واحد، أي تطبيق ورؤيا، ويصعب على أن أتصور ثورة جديدة تعيد نفس الكلام القديم"[7] وهذا هو مفهوم الثورة لدى نزار، ولن تختلف معه عليه، بل وفي ضوئه ستسير هذه القراءة.

لقد كان نزار منذ الصغر مهووسا بكسر الأشياء "شهوة كسر الأشياء هذه أتعبتني وأتعبت أهلي"[8] وقبل أن يهتدي إلى الشعر، جرب الرسم وانتهى إلى أن الصورة طفل جميل لكنه أخرس، وجرب الموسيقى فوجدها علما أبله.. لقد استفاد منهما ولم يعودا سوى مرحلة في طريق الشعر.

كانت بداياته في السادسة عشرة من عمره، في رحلة إبحار من بيروت إلى إيطاليا.. ورغم تخصصه القانوني فقد كان أميل إلى الشعر. يقول: " قصيدتي الشهيرة (نهداك) مثلا. كتبتها على هامش كتاب الشريعة.. وحين دخلت الامتحان في نهاية العام كانت علامتي في مادة الشريعة من أردأ العلامات. ."[9]. وحقا فإن هذه الرداءة في الشريعة لم تقتصر على امتحان الجامعة بل انسحبت على أغلب شعره أيضا..

3– ثائر من عائلة الثوار:

الحب و العشق ليسا طارئين على شاعرنا، فهو من أسرة تمتهن العشق، إنه أخ عاشقة انتحر من أجل عاشقها، وابن رجل (إذا مر به قوام امرأة فارعة، ينتفض كالعصفور، وينكسر كلوح من الزجاج.."[10]. لا يصلي إلا رياء.. لكنه متدين خلقيا (يطعم الفقير، ينصت الى صوت المقرئ.." إن شاعرنا يفصل الدين على مقياسه.. ولا تعنيه منه إلا بعض الجزئيات " السماء لم تكن تهمني". وحتى الاهتمام بالمقرئ فإنه لا يتجاوز الإعجاب بصوته العذب.. أما أمه المشغولة في عبادتها وصومها وسجادتها فلم يكن بينه وبينها أي نقاط التقاء على الصعيد الفكري.. إنه ابن أبيه ومن شابه أباه فما ظلم.

لكن مع ذلك يظل السؤال ماثلا: أليس في تركيزه على إثبات تأثره بأبيه ما يفسر هوسه في الشعر بالنساء وما يؤكد تفسيرات النقاد المولعين بعلم النفس في تفسير شعر من اهتموا بالنساء؟

4– شاعر ثائر:

إن الطفل الثائر المتمرد المولع بالتكسير وابن الثائر الرافض للمسلمات.. لابد أن يكون شاعرا ثائرا كما قدرت العمة الحكيمة تماما.. والثورة الحقيقية ثورة على المفاهيم السائدة وتبشير بمفاهيم جديدة: "الشعر الحقيقي لا يسير على الأرضية المخصصة للمارة. ولا يتقيد بالإشارات الضوئية، وإنما يتقدم في المجهول والحدس والمغامرة"[11]، بمثل هذا الكلام الجميل والفضفاض في الوقت ذاته، يتحدث نزار عن الشعر ليجعله ضربا من التمرد لا يعنيه سوى أن يكون ذلك الشاة القاصية. . وأهم عنصر في بناء الشعر عنده هو المباغتة (أي انتظار ما لا ينتظر) إنه بطبيعة تركيبه، كما يقول: "ضد الشرعية "[12]. وبذلك تكون الكتابة كشفا للمستور وفضحا للعورات، يقول: "ولقد كنت في كل مراحل حياتي وفي كل كتاباتي متورطا.. وراكبا حصان الفضيحة.."[13]. بل إن المبدأ الديكارتي عنده أخذ صيغة أخرى "أكتب شعرا.. إذن أنا مفضوح"[14]. لقد انتبه نزار إلى الوتر الذي يطرب العرب بعدما عمتهم عواصف الغرب بقيم التفسخ والانحلال.. فعزف عليه بشدة.. فلم يجد منهم إلا المزيد من التصفيق "هم الذين طودوني وعمدوني. "[15].

التراث في رأيه سكة حديدية تمتد باتجاه واحد من محطة الجاهلية.. حتى محطة القرن العشرين. وفي هذا الكلام نظر لأنه هو نفسه يؤكد قبل هذا، بأن الجاهلين كتبوا شعرا يشبههم، والأمويين كتبوا شعرا يشبههم، وكذلك العباسيون وغيرهم.

إن تكبير عمود الشعر بظهور شعر التفعيلة والشعر النثري هو أخطر هجوم تعرض له هذا القطار حسب رأيه، وقد يصح ذلك فعلا، لكنه لا يعطينا الحق بتجاهل قرون عديدة من العطاء والابداع.. وتجارب الشعر العربي الحديثة لم تكن كلها إيجابية.. وتغيير الشكل لا يكفي أبدا معيارا للابداع والتجديد.

ويريد نزار أن يحسم بعض السجالات حول إشكالية الريادة في الشعر العربي الحديث فيرى بأن التغيير يكون بالتراكم اقول: "خطأ كبير أن لا تضع في قائمة الثوار اسما كإلياس أبي شبكة.. وبشارة الخوري.."[16] وأحسب أن نزار لم يكن منشغلا بحسم هذا الاشكال بقدر ما كان منشغلا بضم اسمه إلى قائمة الثوار، وهو فعلا ضمنهم بلا شك.

الشكل في نظره "زي يأتي ويروح، وأنا ضد الوثنية الشكلية بكل أنواعها، وضد كل الأشكال الهندسية التي تفرض علي حصارا طروادیا"[17]، لذلك فالانقلاب الذي أحدثته القصيدة العربية الحديثة يتجلى في ثلة من القضايا منها أنها:

- أصبحت تعبيرا عن العصر
- ثارت على القواعد البلاغية
- اتجهت إلى الإغراب والدهشة
- تحللت من القيود الخليلية
- تعددت أبعادها وأصبحت تركز على العمق.
- أصبحت صعبة لأنها لم تعد مجرد بهارات تشكيلية.
- الشعر الحديث (علمنا مالم تعلم) عكس الشعر القديم، وهو لا يتوخى سلامة القراء.
- خرج الشعر من الموالاة إلى المعارضة.
- تجاوز المحلية الضيقة إلى العالمية الكونية.

أن الخيط الرابط بين كل هذه التحولات هو الثورة على المسلمات، والتمرد على ما هو قائم. وبغض النظر عن إحداث الشعر العربي الحديث لكل هذه الانقلابات فعلا أم لا، يتساءل القارئ هل تكفي تعرية بعض البنيات المزيفة أو المريضة للكشف عن بعض مواطن الداء، هل تكفي لإعطاء الدواء؟ هل يكفي تشخيص الداء لعلاجه؟.. وهل كان ذلك فعلا تشخيصا صائبا، أم أنه كان في الغالب تعميقا للجرح أو إضافة مزيد من الجراح إذا نظرنا إلى ذلك من زاوية حضارية قيمية، يكون معها اعتبار الشعر الحديث "قد علمنا ما لم تعلم" من قبيل المبالغات التي تروم هدما بلا هدف ولا معنى.

ومع ذلك فلا يعكر صفو ابتهاج نزار بالشعر الحديث وانقلاباته الا شيء واحد هو اتجاهه نحو السقوط في النمطية والتكرار..

5- ثورة شعرية أمر ضد الشرعية:

لكي ينتبه إليك رجال الإطفاء وهم منشغلون بإطفاء الحريق، لا بد أن تصب الزيت على النار. لا ريب أنك ستثير الانتباه خاصة من جمهور المتحلقين.. وربما يروقهم هذا المشهد المختلف دون أن يعلموا بأن النار قد تصلهم..

في وقت كان فيه النضال الوطني على أشده ضد الاحتلال الأجنبي، وأنظار الجميع متوجهة نحو مطلب الاستقلال الوطني.. وفي سنة 1944م بالضبط خرج نزار على الناس بديوانه الغزلي (قالت لي السمراء).. لقد كان بهذا كمن يهدي امرأ يحترق بيته صفيحة من البترول الممتاز. ولئن كنا قد أشرنا إلى أنه كان يريد ضم نفسه إلى قائمة الثوار، فالحقيقة أن ثورته تجلت خصوصا على مستوى الموضوع، وفي كل ما يفرضه الموضوع من تجديد في الشكل الفني.. وكانت المرأة هي هذا الموضوع. ولذلك فلا عجب أن يقتبس حتى قاموسه من مجال الجنس فيكتسب قول الشاعر دورنمات (إن الشعر هو اغتصاب العالم بالكلمات)[18] عنده مكانة خاصة. فما هي رسالة شعر بهذا الوصف؟ هل هي فقط سباحة ضد التيار؟.

6- وماذا عن السياسية؟

يحتشد تاريخ الشعر العربي الحديث بالمواجهات مع السلطة بأنواعها، سياسية كانت أم اجتماعية أم ثقافية. ولا شك أن سببا رئيسيا وراء ذلك يعود إلى الخطاب الفردي أو الذاتي الطاغي على القصيدة، البناء اللغوي الذي جعلها الشكل الأنسب للاحتجاج.[19]

لقد كان نزار كما نعلم، شاعرا ثائرا، برز ذلك في موضوع المرأة، كما كان شاعرا ثائرا على القوالب البلاغية واللغوية القديمة، ولكن هل كان كذلك في شعره السياسي؟

بالرغم من صعوبة الفصل في الشعر بين السياسة والاجتماع وغير ذلك، لكن لا بأس منهجيا من هذا التقسيم لنشير إلى أن شعره السياسي لم يبتدأ بوضوح إلا بعد نكبة حزيران.. وقد يتساءل المرء هل يحق لشاعر وهب شعره للمرأة أن يكتب شعر الوطنية؟؟ ألا يعدو أن يكون الأمر مجرد موجة الوطنية التي اكتسحت العالم العربية إذاك؟؟

بشيء من الأمانة يسجل نزار قباني أغلب الأوصاف والإدانات التي تلقاها جراء قصيدته (هوامش على دفتر النكسة)، ليؤكد أن هذا القمع لم يكن إلا ردة فعل على النقد الذاتي الذي مارسه من خلال قصيدته هذه.

لكن بعيدا عن النوايا وبمواجهة النص والواقع نجد أن نزار يصر على ماضيه يقول: "وإذا كان المقصود من التوبة هو إنكار شعر الحب الذي كتبته قبل 5 حزيران 1967 فإنني أعتذر عن تقديم أية تنازلات في هذا الموضوع". إن الشاعر يرى نفسه خارج أي إطار أو ضوابط "لا أجد نفسي مضطرا لتقديم حساب إلى أية سلطة كانت.. سماوية كانت.. أم أرضية". نشعره قبل حزيران لم يكن سوى تسجيلا أمينا للواقع واقع الجنس خاصة (كنت شاهد عصري، ولم أكن متطفلا ولا شاهد زور)[20].

طبعا إن الأدب والشعر خاصة ليس مكلفا بتقييم الأخلاق ولا بتقويمها، فذلك شأن الدعاة والمربين، ولعل من وظيفته "بسط التجربة بتضاعيفها المتعددة.. ولكن الحكم الأخلاقي متضمن في طريقة العرض بالذات لأنها تنبع من موقف الشاعر في صميم وعيه وضميره"[21] لذلك لا يستطيع أي كان أن يدعي الحياد.

إن نزار وهو يحاول البحث عن مخرج يقيه انتقادت بعض مخالفيه، يلجأ إلى الربط بين شعره في النساء والشعر الوطني: "الوطن قد يصبح في مرحلة من المراحل أجمل من كل العشيقات."[22]. ولا يختلف النقاد على أمر كهذا، ولكن الواقع أن نزار كان يفصل بين المرأة والوطن، فعندما يكون الشعر تقدما في المجهول فكيف له أن يكون مع الوطن؟.

والأكيد أن السياق السياسي والاجتماعي إذاك كان يفرض قيودا، يشعر معها المتلقي بأن هنالك ما يعيق الشاعر عن الوضوح، ويتفهم أن يكون "الصمت المجازي يظل هو اللغة المهيمنة على النصوص"[23].

وحتى لا نحيد عن درب السلامة لنتمسك بخشبة النص، إن شاعرنا الثائر لم يحتمل الألم والمعاناة، وإن كان يعلم أن الأدب الجاد يولد من رحمهما خاصة بعد ما شعر بأن الحملة ضد "هوامش على دفتر النكسة " دخلت إلى نطاق الوشاية الرسمية، قرر أن يستجير بالرئيس جمال عبد الناصر. وعندما نقرأ رسالته فلاحظ:

ثمان مرات تكررت عبارة (سيادة الرئيس) في هذه الرسالة القصيرة، ومرتين (سيدي الرئيس)، ويستطيع القارئ أن يتفهم ذلك اعتبارا لأن سياق الخطاب يقتضي رغم ما فيه من مبالغة. لكن الذي قد يثير هو الشاعر لا يتردد في التأكيد بأنه مجرد مقلد يدور في فلك الرئيس، يقول في رسالته: إنني لم أتجاوز في قصيدتي نطاق أفكارك في النقد الذاتي.."[24] ويتساءل القارئ مرة أخرى: هل يحق لمن تحلل من محاسبة أي سلطة ولو كانت سلطة سماوية أن يحاسب الناس؟ وهل خرج الشعر فعلا كما بشرنا نزار من الموالاة إلى المعارضة؟

إن نزار الذي تحرر من السلطة الثقافية والاجتماعية ولم يأبه بذلك، هو نفسه يشير في كتابه هذا إلى معاناته مع حرية القول وانتقادات النقاد.

لقد "كان الرفض الذي قوبل به الشاعر خير دعاية لأشعاره"[25]، دون أن ينفي ذلك قيمة شعره الفنية التي لا ينكرها أي ناقد منصف حصيف. ومع أن نزار كما يقول أحد الباحثين قد فتن الناس عن مثلهم الانسانية وأصالتهم وعقيدتهم، قصد إلى ذلك أم لم يقصد[26]، فليس من حق أي كان أن ينكر على نزار ارتباطه بوطنه الذي تجلى في عدد من قصائده.

خاتمة:

لقد اتضح زيف مجموع الرأي القائل بأن الفن تعبير عن الذات.. وأنه صورة طبق الأصل عن المشاعر والخبرات.. ولكن مع ذلك يبقى الشعر يحمل رؤية الشاعر للكون والحياة والانسان. وهذه الرؤية هي مناط التقويم وليس حياة الشاعر.

والسيرة الذاتية أشبه بستارة تنفتح على شعر الشاعر وتضيء الكثير من عتمته كما يقول نزار: " السيرة الذاتية التي يكتبها الشاعر خلال حياته عن تجربته الشعرية هي أهم الكتابات على الاطلاق، لأنها تضيء خلفية المسرح، وتكشف الستائر عن شئونه الحياتية والثقافية الصغيرة التي لا يعرفها أحد"[27] ولقد بدا لي نزار منشغلا بإبراز ثوريته، ثورة شعرية تتجاوز القوالب الجمالية واللغوية القديمة، لكنها كما تبين في الغالب ثورة تتحدى القيم والأخلاق.. وتتلاعب بالمفاهيم (الجنس يساوي الحب والأخلاق تحيل على الرجعية..) وإذا كان شاعرنا أحيانا، قد عايش مرحلته بزخمها الفكري والسياسي فقد ظل محافظا على موقعه الذي صنع شهرته، الا وهو موضوع المرأة.

وللإنصاف نقول إن كتاب "قصتي مع الشعر" نمط بارع في كتابة السيرة الذاتية لا يقل عن براعة نزار قباني الشعرية وهذا ما لم يتأت لكثير من الشعراء ممن كتبوا سيرهم الذاتية.

الهوامش:

[1] –قصتي مع الشعر" نزار قباني ص: 6

[2] – نفسه، ص: 9

[3] – نفسه، ص: 11

[4] – نفسه، ص: 16

[5] –"قصتي مع الشعر" ص: 24.

[6] – نفسه، ص: 25

[7] – نفسه، ص: 177

[8] – نفسه، ص: 57

[9] – قصتي مع الشعر" ص: 64

[10]– نفسه، ص: 78

[11] – نفسه، ص: 123

[12] – نفسه: ص: 123

[13] – "قصتي مع الشعر، ص: 127

[14] – نفسه، ص: 127، وطبعا يمكن أن نفهم "الفضيحة" بمعناها المجازي في تجاوز الطابوهات واقتحام الموضوعات الممنوعة، لكنها تحضر كذلك بمعناها اللغوي الشائع.

[15] – نفسه، ص: 96

[16] – نفسه، ص: 69

[17] – "الرومانسية في الشعر العربي المعاصر في سورية" جلال فاروق الشريف، ص: 116

[18] – "قصتي مع الشعر" ص: 77

[19] – مواجهات السلطة: قلق الهيمنة عبر الثقافات، سعد البازعي، ص: 235

[20] –"قصتي مع الشعر" ص: 226

[21] – الكون الشعري عند نزار، ص: 167

[22] – قصتي مع الشعر، ص: 224

[23] – مواجهات السلطة، ص: 238

[24] – نفسه، ص: 238

25 – " الشعر بين الرؤيا والتشكيل" عبد العزيز المقالح، ص:71

26 – الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد" أحمد بسام ساعي

27 – مجلة (الآداب): نونبر/ديسمر) ع: 12.11 1998، ("قصتي مع الشعر" سحر اللغة وبراعة الإيهام) محمد صابر عبيد. ص 64 – 65